على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من خيث لا يعلمون

الفصل الثالث عشر

لماذا ؟

طال الحصار الى ابعد مما كان يعتقد الجزّار ، فكاد يقلق لمصير قلعتـه ، وهو يرى الافرنج يضيقون نطـاق جيشهم شيئاً فشيئـاً ، ويسهرون على سدّ المسالك كلها ، فلا يرون رجلاً الّا أسروه ، ولا قافلة الا وضعوا يدهم عليها ؛ والجزّار ينتظر عبثاً ما آمله من الامداد من جهة الشام ، ومن جهة الامير بشير . حتى كان السادس عشر من نيسان فوصلته الاخبار المشؤومة بان الفرنساويين انتصروا انتصارهم الباهر حول جبل الطور ، فبـدّدوا جيش الشام بكامله ، واستولوا على معدّاته وذخائره . فهاج مولى عكا ، وأمر بقتل من اوصل اليه الخبر . ولمـّا لم يكن استلم شيئاً من الامير بشير ، حوّل غضبه وجهة غانم ، فأمر بالتضييق عليه .

ولم يكن بحاجة الى هذا التضييق الشديد ليدفع غانماً الى اليأس . فان ما كان وصل اليه هـذا مع عائلته من ضنك المعيشة كان كافياً لتهدئـة اشدّ الاعداء غضباً ، واقسى الخصوم انتقامـاً . فان تلك الجراية الصغيرة التي كان يُعطاها يومياً من الخبز الاسود ، لم تكن لتنيلـه شبعاً ، فضلاً عن فرحات ، وعن بدور التي كان عليها ايضاً ان ترضع الصغيرين ؛ وان ذاك الكوز من الماء

الأجاج لم يكن لينقع غليلاً. هذا الى اوساخ متراكمة في الميناء تحت الشباك ، وروائح كريهة منبعثة من اطراف القلعة ، ورطوبة ثقيلة ترشح من سقف ذاك الكهف واطرافه ، فتؤذي الاعين ، وترشح الادمغة ، وتضني الاجسام . كل ذلك الى الهواء الفاسد الهابّ من معسكر الفرنساويين ، وقد اخذت اوبئة الطاعون والحميات تفشو في جيوشهم ، كان شديد الوطأة على عائلة غانم عامة ، وعلى صغيريه خاصة ؛ فلم يلبثا ان ظهر عليهما الذبول ، فتكسرت اجفانهما ، وهزلت اعضاؤهما ، واضطربت حركاتهما ، وتقلك عليهما سُعال جافّ مقرون بدور من الحمّى ينضحهما عرقاً قبل ان يرعد فرائصهما ببرده القارس ، فيطرحهما زهرتين قصفتهما عاصفة هوجاء وهما في نضارة الربيع .

وكانت بدور تلقيهما على فراش حقير ، وتركع امامهما حيرى في ما تفعل ، تائهة عما تفكر ، تصلّي ساعة وتبكي ساعات ، وتومئ حيناً بعد حين الى فرحات ، فيناولها كوز الماء وهو العلاج الوحيد الذي حصلوا عليه . بينما كان غانم يتجمع على نفسه في زاوية الغرفة ، فيشخص ببصره تارةً الى صغيريه ، وطوراً الى السماء يتلمسها من خلال شقوق النافذة ، فيراها غبراء من وراء دموعه المتناثرة ، فيضبط انفاسه الجائشة ، ويكبح عواطفه الثائرة ، متأسفاً حيناً على ذهاب الاب توما طيب النفس والجسد ، وفراق مصطفى آغا ، مستسلماً حيناً آخر الى مشيئة الله . حتى اذا سمع السعال يمتلك صدري وحيديه العزيزين ، وهو لا يقوى على معالجته ؛ ورأى الداء يخنق انفاسهما اللطيفة ، وهو لا يتمكن من مقاومته ؛ وشعر بشبح الموت ينسلّ اليهما بقدم ثابتة وعزم اكيد ، وهو لا يقدر على ردّه ولو بتضحية روحه ؛ تدافعت عوامل الحزن في جوانحه ، وضغطت عواطف اليأس على نفسه ، فشرق بدموعه ، وانفجر صدره بالآنات ، فالتفت الى العلاء ، وتأوّه :

— اللهمّ ! لماذا ؟... لماذا ابعدت عنّا الاب توما ؟ لماذا جعلت الجزّار يحظر على مصطفى آغا المجيء الينا ؟ لماذا رميتنا بهذا الكهف دون معين ؟ لا اعتراض على مشيئتك يا ربّ ... ولكن... ايّ ذنب جناه هذان الصغيران فلزم ان يكفّرا عنه ؟ ايّ جرم اقترفه هذان الملكان فوجب ان يقاسيا العذابات

من اجله ؟ لماذا صرفت غضبك اليهما دوني ؟ لماذا ثقلت يدك على جسميهما النحيفين ؟ لماذا ؟... لماذا ؟...

حتى اذا انقضت تلك الازمة سكن سكوناً موقتاً بين عاصفتين لا تلبث الثانية ان تهبّ عليه اقوى من الاولى ، فيردّد : لماذا ؟

اما الامّ فكانت تمثال حزن واسى ، اذابها السهر وسوء الغذاء ، وصبغ الحزن محجريها بصفرة شابها سواد ، وخدّدت الدموع وجنتيها ، وهدّ الاسى قواها ، فهبطت تتلاشى شيئاً فشيئاً ، لا يحيا فيها الّا العينان ، ولا يتنبه الّا موضع الالم.

* * *

لم يقوَ الصغيران على احتمال تلك العذابات طويلًا ، فاخذ التزاع يتملك جسميهما شيئاً فشيئاً ، الى ان كان اليوم العاشر من ذاك المرض المميت ، فخمدت حياة سعدى في صباحه . ولم تلبث ان استدعت اخاها عند المساء فلبّاها ، متخلّصين من اعباء حياة لم تخلق لامثالهما فثقلت عليهما وطأتها ، ولم يقطعا منها بعد الّا مرحلة قصيرة ، ولم يفتحا اعينهما الا على ظلام كثيف. فانتقلا الى مقرّ اشباههما...

من الاوتار الحسّاسة ما يردّ لأخفى ما يمسه من النفحات صدًى بعيدًا ، حتى اذا فاجأته النقرة القويّة انقطع وسكت . وكذلك بعض النفوس البشرية ، ومنها نفس غانم . فان ذاك الشابّ الدقيق الحسّ ، الذي لم يكن يزعج عائلته امرٌ مهما كان بسيطاً ، حتى تتفجّر دموعه ؛ والذي كان ، لدقائق خلت ، يكاد يستسلم لليأس القاتل لدى مشاهدته عذاب وحيديه ؛ هذا الرجل الوافر الشعور لم يتحقّق ان الموت جدّ اطراف عزيزَيه ، حتى جفّت دموعه ، وسكنت أناته ، ووقف ساكتاً كأنه بعيد عن تلك المأساة . ذاك ان النقرة كانت اقوى من ان تتحمّلها اوتار نفسه الدقيقة فتقطعت ، والمصيبة كانت اشدّ من ان يصبر عليها قلبه الرقيق فانخلع ؛ وما لبث ان هبط بكلّه في ذاك الظلام الثقيل ، وليس فيه من دلائل الحياة سوى نظر جامد وهيئة بلهاء تدلّ بمجموعها على سؤال بعيد الجواب : لماذا ؟...

الفصل الرابع عشر

جواب السؤال

ان لم تكن بدور رمت بنفسها من النافذة على البحر ، فذلك لانه كان لا يزال في قلبها المضطرب بقية ايمان عزيز ، ولانه كان الى جانبها رجل بحاجة شديدة الى من يعزيه . وهي ، لولا ذلك ، لما اشرقت عليها شمس الصباح التالي . . .

على ان للنساء ازاء الفواجع الفادحة صبرًا قد يفوق صبر الرجال ؛ لا لكونهنّ اوفر رزانة ، واصحّ بصرًا بمواقع الامور ، بل لما في طبيعتهنّ من البداهة في العواطف والسرعة في التأثر . فكما انهنّ اسرع اندفاعاً في اثارة الحزن ، كذلك تراهنّ اسرع تلبيةً لداعي الصبر والسلوان . فضلًا عن ان عليهنّ من الواجبات البيتية العديدة ما لا يسمح لهنّ طويلًا بالاستسلام لمثيرات الاسى . فكانت بدور ، اذا طلع الفجر ، تقود زوجها الى قبر الصغيرين في حوض قريب من الغرفة ، فيصليان هنيهة ، ثم يرجعان الى البيت فتنصرف هي الى بعض اشغالها ، ولا همّ لها الّا التفكير بالبعد عن تلك الديار المشؤومة ؛ ويجثم هو على ذاك الفراش الحقير يناجي آلامه واحزانه .

امّا فرحات فكان كالصنم وسط هذه المأساة ، توالت عليه الخطوب في ما مضى من السنين ؛ حتى اذا امّل بقليل من الراحة في آخر ايامه ، اصابه القدر بتلك النازلة فذهبت بكل ما كان باقياً في نفسه من تجلّد ورباطة جأش . فغدا يروح ويجيء ذاهلًا ، فيقضي حاجات الاسيفين صامتاً ، لا يفكر الّا بطريقة يخلّص بها غانمًا وبدور من قرب الجزّار ، فيسلّيهما نوعاً عن ذاك الحزن المذيب .

* * *

وبينما هو مارّ في صباح من اوائل ايار ، امام باب السراي ، يلتمس ليديه ما يأكلان ، اذ استوقفه شيخ رثّ الثياب معتمّ بعمامة بيضاء ،

فذعر فرحات خائفاً من مصيبة جديدة . فهدأ الرجل روعه ، وانفرد بـه في زاوية ثم قال :

— ألم تعرفني يا فرحات ؟...

واذ حملق هذا استغراباً ، قال الغريب:

— دلني على مقرّ غانم ، فنتابع الحديث في مأمن.

فقاده فرحات ذاهلاً الى غرفة سيّده . وما وصل حتى القى تلك العمامة الكبيرة وقال :

— انا حنا بيدر ، يا سيدي ، من كاتوليك دير القمر . كنت في خدمة المشايخ النكديّة من زمن طويل . وقد اشتهرت بالحيلة والدهاء حتى اني توصلت ، منذ عشرين سنة ، الى تخليص ابني الشيخ ابي فاعور النكدي من سجن الجزّار في صيدا ، وكان لا يزال فيها : فخلصتهما من تحت ذقنه ، وحضرت بهما الى دير القمر.

فتركت بدور شغلها واقبلت على الغريب تتلقف باقي حديثه ، وقد لمعت عيناها بنور غريب . اما غانم فظلّ مطرق الرأس حائراً.

فتابع الرجل :

— وقد دعاني الامير بشير من مدة ، وقال ان مجيء الفرنساوية قد احدث تضعضعاً في الاحزاب اللبنانيـة فكاد ينفصل حزب بو غانم عن حزب المير جهجاه ، وان لا رأب لهذا الشقاق الّا بوجود غانم عندنا . ثم كلّفني خلاصك وبذل لي مالاً كثيراً فتعهدت بذلك . واتيت مع قافلة من وجهاء الموارنـة ارسلهم البطريرك يوسف التيـان ليلاقوا الفرنساوية ، ويهدوا اليهم شيئاً من المؤن والذخائر . فلمّا افترقوا هم قاصدين معسكر بونابرتي ، سعيت انا نحو عكا ، فلم يلبث حرّاسهـا ان قبضوا عليّ . فقلت لهم اني درزي هربت من جور الامير بشير ، فتركوني حرًّا وسط المدينة . فسرت افتش عن مقرك ، يا سيدي ، لعلّي لا اعدم وسيلة لخلاصك.

فقلب غانم شفتيه وتمتم :

— لا سبيل الى ذلك فالاسوار عالية ، والابواب محروسة !

ثم هزّ رأسه يائساً ، فنظرت اليه بدور ملياً بكل ما في قلبها من شفقة ، وبكل ما في جوارحها من توق الى الخلاص . ثم حوّلت وجهها الى فرحات فتبادلت واياه نظرات ملؤها الامل بالخلاص القريب . امّا الغريب فقال بسكون :

— هذا ما سنبحث فيه . . .

عند ذلك عقد الاربعة مجلساً قرّروا فيه ، بعد اخذ وردّ ، ان غانماً يختبيء في احد المخادع ، بعد ان يترك لبّادته ورداءه قرب الشبّاك ، مع ورقة صغيرة باسم بدور يقول فيها انه فضل الانتحار على تلك الحياة الذليلة والتعيسة بعد موت وحيديه . فتبكي بدور وتعول حتى يعلم الجزّار بالامر . ثم بعد يومين ، تسير لمقابلته في حدادها ، فتتوسّل اليه ان يأذن لها بالخروج من عكا مع رفات صغيريها . فاذا اذن ، يشتري فرحات تابوتاً يضع فيه بدل الرفات ، غانماً نفسه ، ثم يستأجر مكارياً يكون حنّا بيدر المذكور . وهكذا يقطعون نطاق الحصار بسلامة .

وقد تردّد الابوان مدة في قبول هذا الرأي لانه كان يعزّ عليهما ان يشركا ذينك الملكين الطاهرين في غشّ وخداع . ولكن غانماً رأى ان في المسألة خلاصه وخلاص بدور ، وخصوصاً خلاص وطنه من الاشقاق ، فقنع مرغماً ، وجارته امرأته .

* * *

بعد يومين من انتحار غانم المزعوم ، مثلت الحزينة مع خادمها امام الجزّار فعرضت له الامر ، والتمست منه باكيةً ان يسمح لها بان تأخذ رفات وحيديها الى ارض آبائها ، فتقيم ما بقي لها من الايام بالحزن والاسى .

فنظر اليها الجزّار نظرة الاستطلاع ، فاضطربت قليلاً ثم تجلّدت . فقال :

— طيّب ! اذهبي ! ولكن . . . لا أرى من لزوم لنقل الرفات . . .

فاجهشت بالبكاء وارادت معاودة الالتماس . فاشار عليها بالسكوت ، ثم هزّ رأسه وتابع :

— ما لي ولهذه الامور . فاذهبي وخذي ولديك . وخذي خادمك ايضاً فلا نفع لنا منه . . . ولكن بلّغي الامير بشيراً ان سيرجع الفرنساوية خائبين عن

قريب ، فننصرف لمحاسبته . . .

فانحنت بـدور وقبلت طرف عباءته . ثم خرجت مع فرحات الى حيث كان كل شيء حاضراً .

وعند الفلس سافر الثلاثة بعد ان حمّلوا التابوت على البغل ، ووراءه بدور تبكي . وعن الجانبين خيّالان كان ارسلهما الجزّار ليرافقا الراحلين الى نقطة الحصار فيفتحا لهم الابواب .

* * *

لما وصل غانم الى دير القمر ، فتخلص من ضغط الجزّار ، ودخل قصره المهجور ، واجتمع باميره العزيز ، وادرك حالة الجبـل وكم كان من الضروري مجيئه ليوحّد بين تلك النزعات المتباينة ، ولا يقدر على الجمع بينهـا الّا هو ؛ ادرك جواب سؤاله . . . وفهم « لماذا » شاءت العناية الالهيـة الاستئثار بذينك الملكين الطاهرين ، فخرّ ساجداً لحكمة الله . . .

ثم اهتمّ منـذ اليوم الثاني ، فاقـام في وسط بستانه اثراً تذكارياً فخماً لوحيديـه وضع فيه تابوت الخـلاص ، ونقش على رخامـه الناصع اسمي فرحات وسعدى ، وتحتهما هذه الآية :

« وقد يكون من الوبال ضحايا في سبيل آمالهم من حيث لا يعلمون ! »

دير القمر ، نيسان ١٩٢٨ — بيروت ، تشرين الثاني ١٩٢٩